الفصل الرابع

الطريق إلى وعد بلفور

الصهيونية العلمية

أثارت الثورة العلمية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر خلافًا بين الإيمان والعلم، فقد نشر داروين كتابه «أصل الأنواع» عام ١٨٥٩م، ونشر كتاب «سلالة الإنسان» عام ١٨٧١م. وفى عام ١٨٦٣م، نشر توماس هكسلى كتابه «مكان الإنسان فى الطبيعة»، وكان من نتاج ذلك أن طورت الصهيونية نظرياتها الخاصة بالتطور. وفى عام ١٨٦٥م، أنشأ الصهيونيون الإنجليز «صندوق استكشاف فلسطين» ليبرهنوا على مبادئهم الدينية من خلال العلم الحديث.

تم إرسال «تشارلز وارن ـ Charles Warren»، و«كلود رينير ـ Claude Reignier» إلى فلسطين لتقصى إمكاناتها الاقتصادية المستقبلية، وتنبأ أولهما فى كتابه «أرض الموعد» عام ١٨٧٥م بقدرة فلسطين الإنتاجية فى المستقبل ولكن فى ظل الاستعمار اليهودى. وكان زميله «كوندر ـ Conder» مقتنعًا كذلك بأن «الطاقة والصناعة والمهارة التى تميز اليهود صفات قيمة جدًا فى بلد انغمس سكانه فى الكسل المميت»[١].

وفى الوقت نفسه، قام كثير من المكتشفين وماسحى الأراضى وعلماء الآثار والمغامرين برحلات إلى فلسطين، وعادوا منها بتقارير عن نتائج أبحاثهم «العلمية» التى لم تكن فى معظم الحالات أكثر من استنتاجات معروفة. لقد أبصروا هناك ما كانوا يريدون روايته، وهو الإهمال والدمار اللذين أصابا بلادًا كانت مزدهرة ذات يوم، وكان اللوم على ما أصاب فلسطين من بؤس يَنْصَبُّ بطبيعة الحال على «القبائل العربية البُدائية» التى لم تكن ميزاتها تعدو «الكسل والغباء المطبق»، والتى كانت عاجزة تمامًا عن تصريف شئونها، بل شئون أرض كفلسطين ذات مستقبل مزدهر يبشر بالخير.

وفى مقابل ذلك، نرى اليهود أصحاب الأرض «الشرعيين لكن الغائبين» الذين اعتبرت عودتهم إليها الحل الوحيد لما تواجهه فلسطين من مشكلات. وتمشيًا مع هذا الاعتقاد الصهيونى المتأصل الجذور، كتب الچيولوچى الشهير «چون ويليام دوسن - J.W.Dawson» عام ١٨٨٨م فى أعقاب رحلة ميدانية إلى فلسطين:

لم تستطع أمة أن تقيم كيانًا لها فى فلسطين كأمة حتى الآن، ولم يكن هناك وحدة قومية أو روح وطنية. أما القبائل الفقيرة المؤلفة من عناصر شتى... فقد أقامت فيها مجرد مستأجرين وأصحاب أرض مؤقتين فى انتظار أولئك المؤهلين لتملك الأرض بشكل دائم[٢].

وهكذا يتبين أنه حين كان يتعلق الأمر بفلسطين واليهود، فإنه حتى العلماء اللاأدريون، يكنون مشاعر پيوريتانية فى وجهة نظرهم الصهيونية.

إن أية دراسة علمية صادقة عن واقع الحال فى فلسطين كانت ستكشف مجموعة مغايرة من الحقائق، أولها: إن حال اليهود القلائل الذين كانوا يعيشون فى فلسطين آنذاك لم تكن أفضل من حال غالبية العرب هناك، كما لم تكن تبشر بالخير أكثر من غيرها، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن ما يسمى بالروح القومية اليهودية كانت فى طور الإعداد، بل إن الدراسات التاريخية اليهودية، وحتى الصهيونية تظهر عكس ذلك[٣]. ولذا كان لا بد أن تأتى المبادرات الاستعمارية الأولى من الصهيونيين غير اليهود وكان ينبغى إيجاد حقائق لم تكن موجودة فعلاً، وهذا بدوره إيذان بأفكار الصهيونية اليهودية فى القرن العشرين.

كان مصير كل من الصهيونية والاستعمار متشابكًا منذ البداية، فقد كانت المحاولات الأولى لتوطين اليهود كمستعمرين زراعيين مرتبطة بمكانة فلسطين فى المجالات السياسية والإستراتيچية.

قدم أنصار العودة من المسيحيين واليهود مشروعين، يتحدث أولهما عن فائدة إيجاد سكان نشيطين ودودين كاليهود فى منطقة حيوية «محايدة»، وهى فلسطين الواقعة على الطريق البرى للهند، والتى

يمكن أن تصبح محمية بريطانية إذا ما انتزعت من يد «رجل أوروبا المريض» فى الباب العالى. وقدم بعض الضباط الإنجليز الفكرة الثانية التى تقضى بشق قناة من البحر المتوسط إلى خليج العقبة. وكان «تحييد» فلسطين غير منفصل عن تطوير الشرق الأوسط على يد «جمعية شرقية دولية» على غرار شركة الهند الشرقية وعودة اليهود إلى فلسطين كمستعمرين بموجب امتياز خاص[٤].

كان صندوق استكشاف فلسطين واحداً من المؤسسات والمنظمات الكثيرة التى ازدهرت فى إنجلترا فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، والتى كانت تقدم استشاراتها ومساعداتها المادية والشخصية لليهود الراغبين فى الاستيطان فى مستعمرات زراعية فى فلسطين، وكان أنصار القضية اليهودية من غير اليهود يؤثرون نشر مشروعاتهم فى صحف يهودية ليضمنوا وصولها إلى أكبر عدد ممكن من اليهود. وقد نشرت «جويش كرونيكل ـ Jewish Chronicle»، وهبرو أوبزرفر ـ Hebrow Observet، وفويس أوف جاكوب ـ Voice of Jacob» سلسلة من المقالات التى كتبها الصهيونيون غير اليهود. وفى عام ١٨٧١م، اقترح «إسحق آش» «فى إحدى مقالاته التى اقتبسنا منها أعلاه» تشكيل شركة ذات حقوق وامتيازات على غرار شركة الهند الشرقية أو شركة خليج هدسون، وتوقع قيام صندوق النقد القومى اليهودى قبل ثلاثين عاماً من إنشائه. وفيما يلى بعض اقتراحاته:

هناك ثلاث أو أربع خطوات ضرورية لإعادة قومية يهودية فى فلسطين: شراء الأرض من أصحابها الحاليين أولاً، وجعلها ذات قيمة للمستأجرين والفلاحين عن طريق إنفاق مبلغ من المال حتى إذا ما تحسنت أحوالها؛ ثم تأجيرها لمستأجرين يهود بشكل دائم وبأجور ثابتة. وثالثة الخطوات هى: توجيه رأس المال لا لاستغلال الأرض فحسب، بل لإقامة مصانع ذات طبيعة وأهمية قومية، ورابعة الخطوات هى: توجيه هذه المصانع وغيرها لجعل البلد فى وضع مناسب للدفاع العسكرى بحيث تتمكن الأمة من المحافظة على استقلالها من كل الغرباء عندما يحين الوقت للدفاع عنها...[٥].

لورنس أوليفنت يضع الخطوط العريضة

كان أقوى ممثل للصهيونيين غير اليهود هو لورنس أوليفنت (١٨٢٩ ـ ١٨٨٨م) عضو البرلمان، ووزير الخارجية والصحفى، وفوق ذلك كله المتدين المتطرف. وبصفته صاحب نظرية إعادة إحياء الإمبراطورية العثمانية لمواجهة منافستها الإمبراطورية الروسية، اقترح خطة مفصلة لتوطين اليهود. وبعد أن قام بزيارات شخصية لفلسطين لمسح أراضيها ودراسة ظروف الاستيطان والاستعمار الزراعى، نشر عام ١٨٨٠م كتابه «أرض جلعاد» واقترح إقامة مستوطنة يهودية شرق نهر الأردن تكون تحت السيادة العثمانية والحماية البريطانية:

على إنجلترا أن تقرر ما إذا كانت ستقوم بمهمة استكشاف مدنها المهدمة، وتطوير مواردها الزراعية الهائلة عن طريق إعادة توطين الجنس الذى تملكها أولاً قبل ٣٠٠٠ عام، وتأمين المكاسب السياسية الكبيرة التى ستنتج عن مثل هذه السياسة [٦].

وكان اقتراحُه إقامة مستعمرة على مساحة مليون ونصف فدان شرق نهر الأردن، أكثر الخطط المفصلة والموضوعة بعناية للاستيطان فى هذه الفترة، وسيجلب لهذه المستعمرة المستوطنون اليهود من رومانيا وروسيا وأجزاء أخرى من الإمبراطورية.

وقدم أوليفنت كذلك توصيات بشأن السكان العرب فى فلسطين، فالبدو الذين وصفهم بأنهم «مولعون بالحرب» يجب أن يطردوا، أما العرب الفلاحون فَيُسْتَمَالونَ ويوضعون فى «أراض خاصة بهم» كالهنود الحمر فى أمريكا الشمالية. ويمكن استغلال بعض الفلاحين العرب كيد عاملة رخيصة تحت إشراف يهودىٍّ. وكان للعرب فى نظره «حق ضئيل فى المطالبة بشىء من عطفنا؛ لأنهم خربوا البلاد ودمروا قراها ونهبوا سكانها إلى أن آلت إلى حالتها الراهنة»[٧].

ويحظى لورنس أوليفنت بأهمية تفوق الآخرين؛ لأنه أول من أقام اتصالات بين الصهيونيين اليهود وغير اليهود. وقد أدرك، كسلفه تشرشل، والذى سبقه بأربعة عقود من الزمان، أهمية إشراك اليهود أنفسهم فى مشاريع الاستيطان والاستعمار، فدعاهم إلى التعاون فى مقاله «اليهود والمسألة الشرقية» الذى نشر فى عدد سبتمبر عام

١٨٨٣م من «القرن التاسع عشر». وكان أول اتصال له مع يهود يشاركون تفكيره نفسه هو ذلك الذى تم مع حركة «حب صهيون» المؤلفة من الأوروبيين الشرقيين الذين كان همهم الأكبر هو الفرار من موجة المذابح الجديدة التى أعقبت اغتيال القيصر الإسكندر الثانى عام ١٨٨١م، وأخذت الصهيونية اليهودية تحرز تقدمًا بطيئًا منذ عام ١٨٨٠م مع أن الدعم الذى حظيت به كان مقتصرًا على اليهود الروس والأوروبيين الشرقيين. (وعند هذه النقطة كان أهم تحول فى اللاهوت اليهودى هو اقتراح معالجة اضطهادهم علمانيًا عن طريق إيجاد وطن يسمونه وطنهم. وإذا كان من الممكن اعتبار كتيب ليوبنسكر (التحرر الذاتى) الذى كتبه عام ١٨٨٢م نموذجًا لذلك، فليس هناك ما يدعو لأن يكون هذا الوطن فلسطين. والواقع أن بنسكر كان يسخر كثيرًا من الارتباط العاطفى بفلسطين، كما كان يسخر من الآمال بإيجاد حل على يد المسيح المنتظر[٨].

حضر أوليفنت عدة اجتماعات لحركة حب صهيون فى روسيا ورومانيا والتقى زعمائها، كما اجتمع بعدد من زعماء الدين ورجال الدولة غير اليهود، ومنهم أمير ويلز الذى أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع. كانت الاحتمالات المستقبلية مشرقة جدًا، فقد كانت لدى رئيس وزراء بريطانيا اللورد بيكونسفيلد (دزرائيلى)[٩] ووزير خارجيته اللورد سالزبرى الطموحات نفسها، فمنحا أوليفنت إذنًا بالتفاوض مع الحكومة العثمانية حول أرض يمكن لليهود استيطانها، بل إنه حصل كذلك على موافقة وزير الخارجية الفرنسى.

تحول سياسة بريطانيا تجاه الدولة العثمانية

عجلت التطورات السياسية المحلية فى وضع حد لجهود دزرائيلى الديبلوماسية، فقد فاز حزب الأحرار فى الانتخابات العامة عام ١٨٨٠م وحل جلادستون الليبرالى محل اللورد بيكونسفيلد، وكان ذلك يعنى تغييرًا فى سياسة بريطانيا الشرقية، فلم تعد بريطانيا صديقة السلطان وحاميته «كان جلادستون يشعر بالاشمئزاز من الأتراك، وكان يكره الاستعمار، ويبدو أنه كان يعتقد أن بإمكانه جعل المسئوليات الملقاة على كاهل بريطانيا نتيجة التوسع الاستعمارى تتلاشى نتيجة تجاهلها»[١٠].

وأخيرًا، حانت الفرصة المناسبة للصهيونية غير اليهودية فى بريطانيا. كان الصهيونيون يحسون طوال الوقت أنهم مرغمون على القيام بمناقشاتهم باسم سياسة

قدر لها الفشل، ولكنهم كانوا يحاولون تكييف خططهم ومشروعاتهم لجعلها منسجمة مع سياسة بريطانيا الشرقية الشاملة ما دامت الحكومة البريطانية ملتزمة بسياستها الموالية للعثمانيين. وكانت كل هزيمة عسكرية يمنى بها العثمانيون، حتى ولو كانت على يد القيصر الروسى اللاسامى، تحيى آمال الصهيونيين غير اليهود، ولكنها كانت سرعان ما تتجمد بسبب مؤتمرات السلام اللاحقة التى كانت فى العادة تبقى على الوضع الراهن فى ولايات السلطان الآسيوية. ففى عام ١٨٧٨م، على سبيل المثال، وبعد أن هزمت روسيا تركيا لم تحل معاهدة سان ستيفانو الأزمة، فقد عقد فى يونيو عام ١٨٧٨م مؤتمر أوروبى لتسوية أزمة شرقية أخرى. وطبقًا لسياسة بريطانيا التقليدية لم تمس ممتلكات تركيا فى آسيا ولم يتغير النظام القائم فى فلسطين.

لكن هذه النكسات لم تثن الصهيونيين الذين تبنوا أسلوب الخطوة خطوة لإقامة دولة يهودية فى فلسطين بطرق غير مباشرة، كالاستعمار اليهودى تحت السيادة التركية والحماية البريطانية، أو تقوية النفوذ البريطانى فى الشرق الأدنى مما سيجعل فلسطين تدور فى فلك مصالح بريطانيا الاستعمارية. ووجد أوليفنت وزملاؤه فى تزايد النفوذ البريطانى ـ مساهمة دزرائيلى فى جعل فلسطين يهودية ـ عوضًا عما أصابهم من خيبة أمل فى مؤتمر برلين.

وعندما عاد المحافظون برئاسة اللورد سالزبرى للسلطة عام ١٨٨٥م واستدعت الحقائق السياسية الجغرافية المتغيرة مراجعة أساسية لسياسة بريطانيا الشرقية، لم يعد اللورد سالزبرى يرى أن استعادة بريطانيا لنفوذها فى القسطنطينية أمر ضرورى، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية فى نظره قضية خاسرة. وقد قال بأسى ذات مرة وهو يتحدث عن السياسة البريطانية خلال حرب القرم «لقد راهنا على الحصان الخاسر»، واعترف بأنه ربما كان من الأفضل لإنجلترا لو أنها وافقت على اقتراح القيصر القاضى بتقسيم الإمبراطورية العثمانية قبل انهيارها المحتوم.

وخلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، اتبع الصهيونيون غير اليهود فى إنجلترا أسلوبًا مباشرًا، فقد كان الوضع السياسى الجغرافى المتميز الناتج جزئيًا عن وصول بريطانيا إلى المنطقة الواقعة جنوب وغرب فلسطين (مصر وقبرص)، وعودة السلطان للقيصر يتطلبان مراجعة لسياسة بريطانيا الشرقية. ولما كان اهتمام بريطانيا منصبًا على

مصر، فقد كان لدى الحكومة سبب كاف للتخلى عن سياستها التقليدية وهى الإبقاء على وحدة أراضى الإمبراطورية العثمانية من أجل جزء منها.

أصبحت أهمية فلسطين فى الخطة البريطانية الاستعمارية تنبع من قربها من مصر، وقد دعا اللورد كتشنر، أحد المؤيدين الرئيسيين للسياسة الشرقية الجديدة، حكومته «لتأمين فلسطين كحصن لبريطانيا فى مصر وكحلقة وصل برية مع الشرق»[١١].

ولم تعد الصهيونية أخيراً، متوافقة مع الاستعمار البريطانى فحسب، بل أصبحت فرعًا منه. وأصبح أشد أنصار الصهيونية هم أولئك الذين يشغلون مناصب مهمة فى الدوائر الحكومية فى إنجلترا. وولت الأيام التى كانت الصهيونية فيها مغلفة بأسلوب اللورد شافتسبرى ذى الأفكار الدينية. وخلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أصبحت الحاجة الملحة للإمبراطورية تتطلب قيام صهيونية سياسية، وأصبح تحقيق البرنامج الصهيونى بشكل فعلى أكثر احتمالاً من أى وقت مضى. قويت شوكة الصهيونية غير اليهودية نتيجة تنامى الصهيونية بين يهود أوروبا. وأخيراً ترأس بعض اليهود الدعوة الصهيونية وعبروا عن اهتمامهم بالعمل السياسى من أجل إعادة توطين اليهود فى فلسطين.

«ويليام هشلر ـ william hechler»، صهيونى حديث

كان القسيس الإنجليكانى الملحق فى السفارة البريطانية فى ڤيينا ويليام هـ. هشلر (١٨٤٥ ـ ١٩٣١م) حلقة وصل أخرى بين الصهيونية غير اليهودية والحركة الصهيونية الحديثة الولادة. ولد هشلر فى جنوب إفريقيا لأبوين ألمانيين پروتستانتيين. ونشأ على التعاليم الإنجليكانية عن الصهيونية الدينية. وقد عبر عن حبه العظيم «لشعب الله القديم» مثل شافتسبرى عن طريق تشجيعه المتزايد للاستيطان اليهودى فى فلسطين. وكتجسيد لدخول الإنجليكانية البريطانية ميدان السياسة، كان هشلر بخلفيته وتدريبه مناسبًا للقيام بدور الوسيط بين الصهيونية اليهودية وغير اليهودية، حيث كان يجمع بين الصهيونية الدينية والإنسانية والسياسية. ولما كان مشربًا بالفكرة الإنجليزية عن العصر الألفى السعيد، فقد حاول أن يحدد تاريخ إعادة إقامة دولة يهودية بشكل دقيق. وكان كذلك متأثراً بتدفق اللاجئين اليهود الفارين من أوروبا الشرقية للغرب.

وفى مايو عام ١٨٨٢م، عقد مؤتمرًا لمسيحيين بارزين للتفكير فى إيجاد حل «للمشكلة اليهودية» التى كانت تواجه إنجلترا نتيجة الهجرة اليهودية المتزايدة. وخلال العام نفسه، زار فلسطين ليتحرى بنفسه ظروف الاستيطان اليهودى الدائم هناك. وقد تحدث فى كتابه «إعادة اليهود إلى فلسطين» عام ١٨٩٤م، الذى ظهر قبل كتيب هرتزل «الدولة اليهودية» بعامين، عن ضرورة «إعادة اليهود إلى فلسطين طبقًا لنبوءات العهد القديم».

وتعلم هشلر، فى سعيه للاستيطان اليهودى، كيف يضيف الحجج السياسية والعملية للحجج الدينية والإنسانية. وفى مطلع عام ١٨٩٦م، حين أصبح ملحقًا للسفارة البريطانية فى ڤيينا، قدم له صديق كتاب الدولة اليهودية، وما إن فرغ من قراءة هذه «التحفة الأدبية الصهيونية» حتى طلب عقد اجتماع مع مؤلفها. وتم اللقاء الحاسم فى العاشر من مارس عام ١٨٩٦م وشعر كل من الرجلين بحب زميله، وسجل هرتزل هذا اللقاء فى مذكراته:

> **حضر ويليام هشلر المبجل، ملحق السفارة الإنجليزية هنا، لزيارتى وهو زميل عاطفى رقيق ذو لحية بنية طويلة بيضاء. إنه متحمس لحلى للمشكلة اليهودية، كما أنه يعتبر حركتى «نقطة تحول نبوية» تنبأ بها قبل عامين. وطبقًا لنبوءة فى عهد عمر (٦٣٧م) حسب بأن يعود اليهود إلى فلسطين فى نهاية ٤٢ شهرًا نبويًا عام (١٢٦٠م) وكان الرقم الذى توصل له هو عام ١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م..**[١٢].

فتح هذا اللقاء الذى كان حاسمًا لـ (هرتزل) أبواب السفارات الأوروبية أمام الحركة الصهيونية الحديثة. ولم يكن هشلر ديبلوماسيًا مفطورًا فحسب، ولكن كانت له اتصالات شخصية ممتازة مع شخصيات مرموقة فى إنجلترا وألمانيا. وعقب اللقاء الأول بفترة قصيرة، رتب هشلر لقاءً بين صديقه الصهيونى الجديد ودوق بادن العظيم عم القيصر ولهلم الثانى. وكان كل من هرتزل وهشلر يؤمل أن يتمكن عم القيصر من إقناع القيصر الألمانى بتبنى دور قورش فى إطار حماية ألمانية للصهيونية فى فلسطين.[١٣] وكان الحديث الذى دار بين هرتزل ودوق بادن فى «كارلسروه ـ karlsruhe» أول نجاح

ديبلوماسى يحققه؛ إذ أثمر عن لقائين مع القيصر نفسه فى القسطنطينية والقدس فى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٨٩٨م، وكان يأمل فى أن يستغل نفوذ ألمانيا المتزايد مع السلطان، ولكن ذلك الحلم لم يتحقق.

برنامج بازل لعام ١٨٩٧م

كان تعاون هشلر ولورنس أوليفنت الفعال مع الحركة الصهيونية اليهودية أول حلقات فى سلسلة طويلة من الاتصالات بين الصهيونيين اليهود وغير اليهود فى مطلع القرن العشرين. ومع ميلاد المنظمة الصهيونية فى أغسطس ١٨٩٧م فى المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل، وضع اليهود أنفسهم للمرة الأولى مسودة البرنامج السياسى الذى كان أساسًا للحركة الصهيونية فى القرن العشرين:

> **تكافح الصهيونية من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يحميه القانون. ويرى المؤتمر أن الوسائل التالية تؤدى إلى الغاية المنشودة: (١) تشجيع استعمار العمال اليهود الصناعيين والزراعيين لفلسطين على أسس مناسبة. (٢) تنظيم وربط جميع اليهود عن طريق المؤسسات المحلية أو الدولية، طبقًا لقانون كل دولة. (٣) تعزيز وتشجيع الإحساس والشعور القومى اليهودى. (٤) اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة حكومية حين يكون ذلك ضروريًا للوصول إلى أهداف الصهيونية**[١٤].

لم تكن الملامح الأساسية لهذا البرنامج الصهيونى جديدة، فمفاهيم الصهيونية غير اليهودية عبر أربعة قرون عززت الروابط التاريخية بين القومية اليهودية المستقلة وأرض فلسطين، وكانت ترى أن ذلك الارتباط هو أساس إعادة تشكيل الوطن القومى اليهودى فى هذه البلاد. وكانت الصهيونية اليهودية وغير اليهودية، ولا تزالان، تسعيان إلى تحويل فلسطين العربية إلى وطن أو دولة قومية يهودية. لكن الحقيقة الأساسية فى ادعائهم أنه كان ينظر إلى اليهود على أنهم شعب لا أرض له ينبغى أن يعاد لإرثه الشرعى فى الوقت المناسب.

جوزيف تشامبرلين يستعمر الصهيونية

كان جوزيف تشامبرلين (١٨٣٦ ـ ١٩١٤م)، يجسد النمط الجديد للصهيونيين غير اليهود الذين ازداد عددهم مع مطلع القرن العشرين. وكان اهتمامه الأكبر منصبّا على الإمبراطورية البريطانية التى كانت «مهمتها القومية» أن تصبح «مهيمنة كقوة فى تاريخ الحضارة العالمية»[١٥]. لم تكن النبوءة التوراتية تهمه، كما أنه لم يكن يتأثر باعتبارات إنسانية ولم يكن لديه التزام أدبى نحو «شعب الله القديم».

ومع ذلك فقد كان يرى، مثل پالمرستون وغيره ممن سبقوه، إن الادعاءات الصهيونية تتيح فرصًا حقيقية لتوسيع الإمبراطورية البريطانية.«كان يرى اليهود مجموعة من المستعمرين الأوروپيين الجاهزين لاستيطان وتطوير وامتلاك أرض خالية تحت الوصاية البريطانية»[١٦] وكان تشامبرلين فى مساعيه لتوسيع حدود الإمبراطورية يبحث باستمرار عن مستعمرين ومستوطنين يجلبون الحضارة «للأجناس الأقل شأنًا التى ليس لها قانون». ولم تكن صهيونيته فلسفية بل عملية جدًا، ففى عام ١٩٠٣م، قدم لـ (هرتزل) العريش فى سيناء ليستوطنها اليهود غير آبه بواحدة من البديهيات الصهيونية، وهى أن فلسطين هى الأرض الوحيدة التى يمكن أن تكون وطنًا يهوديًا[١٧].

إن هناك خلافًا بين العلماء حول السبب الذى جعل تشامبرلين يقبل الصهيونية، فكاتبة سيرة حياته چوليان أميرى ترى أنه كان مدفوعًا لذلك فى البداية بعوامل إنسانية، ولكنه أدرك فيما بعد أن إقامة مستعمرة يهودية فى سيناء قد تكون أداة نافعة لتوسيع النفوذ البريطانى فى فلسطين حين يحين الوقت لتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية المحتوم[١٨]. أما كريستوفر سايكس فيقدم صورة أخرى لصهيونية تشامبرلين:

> **علينا ألا نفترض بأننا نرى فى حماس تشامبرلين للصهيونية ـ الذى كان عاطفيًا ـ مظهرًا آخر من مظاهر التعاليم الألفية، فهو ليس خليفة للورد شافتسبرى ولا أخًا روحيًا لهشلر وسبثروب. لقد كان اهتمامه بمصائر اليهود ناتجًا عن دوافع مادية**[١٩].

إن اهتمام تشامبرلين الإنسانى باليهود، مهما كان صحيحًا، كان أقل أهمية من فكرته عن اليهود كمشكلة. وعندما كان وزيرًا للمستعمرات خلال فترة رئاسة

سالزبرى الثالثة فيما بين عامى ١٨٩٥ و١٩٠٣م، كانت مشكلة إنجلترا الرئيسة هى الهجرة غير المرغوب فيها، وبخاصة من أوروبا الشرقية. ففى ثمانينيات القرن التاسع عشر بدأ تيار المهاجرين اليهود يتدفق من روسيا ورومانيا وكان معظمهم يتجه إلى إنجلترا والولايات المتحدة. وكان تشامبرلين كغيره من الصهيونيين الإنجليز غير اليهود[٢٠] يحبذ سياسة الحد من تدفق هؤلاء اللاجئين. وكان أشد ما يخشاه هو منافسة الأيدى العاملة الرخيصة «والكوارث التى تصيب الطبقة العاملة الإنجليزية نتيجة الهجرة غير المقيدة»[٢١] ومرة أخرى، نرى موقفًا صهيونيًا يشكل جزءًا لا يتجزأ من سياسة الهجرة اللاسامية والحقوق المدنية.

هرتزل يلقى آذانًا صاغية

كان هرتزل أشد ما يكون شوقًا لمقابلة وزير المستعمرات البريطانى «ليكسب تأييد تشامبرلين للاستيطان اليهودى على نطاق معقول داخل الأراضى الخاضعة للسيطرة البريطانية»[٢٢]، ووجد أن إنجلترا هى «نقطة الارتكاز التى يجب تطبيق مبدأ الرافعة عندها»[٢٣]. وخلال المؤتمر الصهيونى الرابع، الذى عقد فى لندن عام ١٩٠٠م، أعلن بكل ثقة فى كلمة الافتتاح «من هذا المكان ستحلق الحركة الصهيونية عاليًا... إنجلترا العظيمة، إنجلترا الحرة، إنجلترا التى تمد عيونها إلى البحار السبعة ستفهمنا»[٢٤].

وفى عام ١٩٠٢م، ظهر هرتزل لأول مرة فى دوائر الحكومة البريطانية الرسمية عندما دُعىَ إلى لندن للمثول كواحد من ١٧٥ شاهدًا أمام «اللجنة الملكية لهجرة الغرباء» التى شكلت لتحرى وتقرير طبيعة ومدى المصائب التى تنسب لهجرة الغرباء غير المقيدة، وبخاصة فى العاصمة، والإجراءات المتخذة لتقييد ومراقبة الهجرة للدول الأجنبية، والمستعمرات البريطانية[٢٥]، وكان هرتزل هو الشاهد الوحيد الذى قدم للجنة حلاً عمليًا للمشكلة على أسس صهيونية:

> **لا شىء يحل المشكلة التى دعيت اللجنة لبحثها وتقديم الرأى بشأنها سوى تحويل تيار الهجرة الذى سيستمر بقوة متزايدة من أوروبا الشرقية. إن يهود أوروبا الشرقية لا يستطيعون أن يبقوا حيث هم- أين سيذهبون؟ إذا كنتم ترون أن بقاءهم هنا غير مرغوب فيه، فلا بد**

من إيجاد مكان آخر يهاجرون إليه دون أن تثير هجرتهم له المشاكل التى تواجههم هنا. لن تبرز هذه المشاكل إذا وجد وطن لهم يتم الاعتراف به قانونيًا، وطنًا يهوديًا[٢٦].

ترك هرتزل أثرًا قويًا فى نفوس أعضاء اللجنة، وبخاصة ممثلها اليهودى اللورد روتشيلد الذى كان يكن له العداء منذ أمد بعيد. لكن هرتزل استطاع أن يستميله إليه بشهادته، ورأى كيف يمكنه أن يستفيد من هرتزل والصهيونية السياسية، فتحقيق برنامج بازل سيحل مشكلة لاجئى أوروبا الشرقية دون أن تكون هناك حاجة لاستيعابهم فى إنجلترا.

هكذا تبنى السياسيون البريطانيون (وبخاصة تشامبرلين وآرثر بلفور رئيس الوزراء المعين حديثًا) حجة هرتزل فى محاولة منهم للحد من الهجرة اليهودية إلى إنجلترا. وبعد بضعة أشهر من مثول هرتزل أمام لجنة الغرباء استقبله تشامبرلين، وكانت هذه أول مرة ـ منذ مفاوضات مناسح بن إسرائيل مع كرومويل حول إعادة اليهود إلى فلسطين ـ يلتقى فيها رجل دولة بريطانى وزعيم يهودى. وفى هذا الاجتماع تلاقت الصهيونية السياسية اليهودية والصهيونية غير اليهودية، وكشف النقاب عن اتجاه الإستراتيجية الصهيونية وفلسفة الاستعمار البريطانى.

قائمة تشامبرلين المتعلقة بالأراضى

أتاحت الصهيونية لتشامبرلين، رسول الإصلاح الاجتماعى المحلى الذى انقلب إلى نصير للخطط الاستعمارية «فرصًا قانونية» لتوسيع الإمبراطورية البريطانية. ولم يكن عداؤه الشخصى للسامية، وهو الأمر الذى كان معروفًا فى الأوساط الإنجليزية اليهودية[٢٧]، يشكل عقبة ما دام ذلك متسقًا مع تصوره الصهيونى عن «جنس يهودى مستقل». والأهم من ذلك أن كونهم أدنى عرقًا من الجنس الأنجلوسكسونى لم يَحُلْ دون قيامهم بالاستيطان كمستعمرين أوروبيين جاهزين فى الإمبراطورية البريطانية التى تزداد اتساعًا.

كان اقتراح تشامبرلين إعطاء اليهود العريش يبدو صهيونيًا إذا ما اعتبرت «مركز

تجمع» للشعب اليهودى بجوار فلسطين[٢٨]، كما أن إقامة مستعمرة يهودية فى «سيناء» قد يثبت أنها أداة نافعة لبسط النفوذ البريطانى على فلسطين عندما يحين الوقت لتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية[٢٩]. وكانت حسابات هرتزل تشير إلى أنه إذا ما أقام اليهود «اتحاداً في العريش» فإن فلسطين ستصبح في مجال النفوذ البريطانى.[٣٠] لكن المشروع فشل على الرغم من حماس تشامبرلين له، فقد عادت لجنة من الخبراء الصهيونيين ـ كانت قد ذهبت للعريش لدراسة ظروف الاستيطان هناك ـ بتقرير يقول إن الأرض ستحتاج إلى رى كثيف عن طريق تحويل نهر النيل. ومما قلل من الاهتمام اليهودى بالمشروع امتناع وزير الخارجية عن القيام بأية مغامرة وإثارة مشاكل مع مصر بسبب العريش. وكان هذان العائقان كافيين لوضع الفكرة كلها على الرف.

لم يجد تشامبرلين صعوبة فى العثور على بقعة أخرى على خارطة الإمبراطورية البريطانية تكون بحاجة إلى استعمار أوروبى، وكانت هذه البقعة هى أوغندا. لكن بعدها عن الهدف النهائى، وهو فلسطين، جعلها غير ذات قيمة. ورفض المؤتمر الصهيونى السادس عام ١٩٠٣م عرض أوغندا (حتى ولو كانت ملجأ مؤقتًا لليهود فى وقت الخطر)[٣١] فضلاً عن أن أوغندا لم تكن تتفق مع برنامج بازل السياسى، ولم تكن تتماشى مع روح الصهيونية اليهودية. وللتاريخ فإن أوغندا تمثل أول عرض إقليمى تقدمه حكومة لليهود بشكل رسمى ككيان قومى.

لاسامية الصهيونية الإنجليزية غير اليهودية

عندما قدمت الحكومة البريطانية أول عرض رسمى لها بإعطاء أرض لليهود فى عام ١٩٠٣م وهى أوغندا، كان رئيس الحكومة آنذاك هو اللورد آرثر چيمس بلفور الذى كان قد خلف عمه اللورد سالزبرى عام ١٩٠٢م كرئيس للوزراء. وعلى ذلك، فقد كان بلفور يشجع الصهيونية قبل إعطائه وعده عام ١٩١٧م. ولم يكن بلفور عام ١٩٠٣م قد أصبح صديقًا لحاييم وايزمان الزعيم الصهيونى الذى كان قد أنشأ جهازًا تنفيذيًا فى إنجلترا لكسب تأييد الحكومة البريطانية لخطط الصهيونية فى فلسطين. وارتباط بلفور الصريح بالصهيونية ـ الذى تجلى بوضوح عندما كان وزيراً للخارجية فى عهد لويد چورچ ـ يلقى ظلالاً على علاقته المبكرة بالمرحلة الهرتزلية. ومع أنه بقى يعبر

عن تأييده للصهيونية طوال حياته، إلا أن ميوله الصهيونية المبكرة تكشف بوضوح عن المزج بين اللاسامية بالنسبة للمسألة اليهودية والعنصرية بالنسبة للتاريخ بشكل عام.

كان بلفور، كتشامبرلين، يؤمن بالمزايا الفريدة للجنس الأنجلوسكسونى، وكانت وطنيته العنصرية المكشوفة تدفعه إلى اللاسامية، كما يتضح من المناقشات حول قانون الغرباء عام ١٩٠٥م. لم يكن بلفور رئيس الحكومة التى قدمت القانون فحسب، ولكنه «قام شخصيًا بدور فعال فى تبنيه فى مجلس العموم»[٣٢]. وحين كان المشروع أمام اللجنة، رد بلفور على السير تشارلز ديلك بقوله:

لقد أدان المبجل بارونيت روح اللاسامية التى ألحقت الخزى الشديد بالسياسة الحديثة لدول أخرى فى أوروبا، وأعلن أن يهود هذه البلاد يعدون عنصرًا مهمًا فى المجتمع، ولم يكن على استعداد لإنكار أى من هذين الأمرين. لكنه كان يرى أنه ليس من مصلحة حضارة هذا الوطن أن يكون فيه كثير من الأشخاص الذين يبقون، نتيجة تصرفاتهم، شعبًا مستقلاً ويعتنقون دينًا يختلف عن دين الغالبية العظمى من مواطنيهم ولا يتزاوجون إلا من بنى جنسهم. ليس من مصلحة الوطن أن يكونوا فيه مهما بلغت درجة وطنيتهم وقدرتهم وجدهم وانغماسهم فى الحياة القومية[٣٣].

لم يترك هذا التصريح أدنى شك فى أن السبب لإلقائه هو الحد من هجرة اليهود من أوروبا الشرقية وإنقاذ إنجلترا من «المآسى الأكيدة التى أصابت البلاد نتيجة هجرة هى فى معظمها يهودية»[٣٤]، وكان رد فعل المؤتمر الصهيونى السابع هو اتهام بلفور «باللاسامية الصريحة ضد الشعب اليهودى كله»[٣٥].

وحتى فى عام ١٩١٤م، اعترف بلفور لوايزمان بأنه قد يشارك كوزيما واجنر كثيرًا من مشاعرها اللاسامية. وكان بلفور قد التقى بها فى بيروت وبحث معها محنة اليهود فى ألمانيا[٣٦].

وإعلان بلفور، والذى يعتبر تجسيدًا للصهيونية السياسية، وشجبه العلنى المتكرر لاضطهاد اليهود فى أوروبا الشرقية، حيث «كانت معاملة الجنس اليهودى عارًا على المسيحية»[٣٧]، لا يعفيانه من لا ساميته. وعلى النقيض من ذلك فإن مواقف بلفور

الغامضة المبهمة من المسألة اليهودية تدفعنا إلى القناعة بأن الصهيونية والعنصرية واللاسامية إنما هى جوانب لظاهرة واحدة: فطبيعة الصهيونية لم تكن ملائمة للاسامية فحسب، ولكنها كانت تشجعها. ولذا فإن معاداة بلفور للهجرة اليهودية لم تكن تعتبر «عداء للسامية بالمعنى العادى المعروف للكلمة» ولكنها كانت مجرد «ضرورة اجتماعية واقتصادية شاملة ملازمة لهذه الهجرة»[٣٨]. ولا بد أن بلفور كان يفكر على هذه الأسس عندما رفض عام ١٩١٧م التدخل لدى الحكومة الروسية من أجل إزالة القيود المتعلقة بإعطاء اليهود المواطنية. ويروى عنه أنه رد على طلب لوسين ولف بقوله:

حيثما توجه المرء فى أوروبا الشرقية فإنه يرى يهوديًا ناجحًا فى مجال أو آخر، وعندما يضاف إلى ذلك أنه ينتمى إلى جنس متميز وأنه يعتنق ديانة هى محل كره متوارث من المحيطين به، فضلاً عن أنهم يعدون بالملايين.. يدرك المرء سر الرغبة فى قمعه ومنعه من الحق الذى له.

لم يقل (بلفور) أن ذلك يبرر الاضطهاد. ولكن هذه الأمور جميعًا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عندما تم تقديم اقتراح بأن تتدخل الحكومة الأجنبية من أجل تحرير اليهود الروس[٣٩].

كانت صهيونية بلفور المتقدة، والعاطفية أحيانًا، نابعة من تصوره «للتمييز العنصرى» لليهود الذى يعتبر العرق والدين والوطن بالنسبة لهم أمورًا متداخلةً معًا. يضاف إلى ذلك أن الصهيونية كانت تتماشى مع فلسفته المحافظة:

كانت وجهة نظره من جدوى الاعتراف بالحق اليهودى التاريخى فى وضع خاص فى فلسطين بعيدة المدى، بحيث تمتد للماضى والمستقبل بشكل يفوق ما كان عليه حال زملائه. كان يرى الصهيونيين حماة لمجتمع ذى تقاليد دينية وعرقية تجعل اليهودى غير المندمج قوة محافظة هائلة فى السياسة العالمية، وكان يشعر أن العالم المسيحى كافأ اليهود لمساهمتهم فى الثقافة والديانة[٤٠].

كان بلفور يشترك مع كثير من الصهيونيين غير اليهود فى حيرتهم فى كيفية التوفيق بين فكرتين متناقضتين ظاهريًا، فقد كانوا من ناحية يبدون إعجابهم بالجنس اليهودى،

حتى إن بلفور وصفهم ذات مرة بأنهم «أكثر شعوبَ البشرية نبوغًا منذ إغريقيّيْ القرن الخامس الميلادى»[٤١]، ولكنهم من ناحية أخرى لم يكونوا قادرين على التسليم بـ «انفصاليتهم» عن محيطهم غير اليهودى. وكان الصهيونيون غير اليهود يظهرون «نوعًا من الحب للسامية الذى يؤكد على تميز اليهود، وكان ذلك يتضمن أن التحرر قد ألحق بهم أذىً لأنه طمس هويتهم كأمة»[٤٢].

وأجابت الصهيونية عن تلك الحيرة حين قبلت يهودية اليهود التى لا تذوب فى غيرها كشرط ضرورى. وأهمية الصهيونية للعالم غير اليهودى، كما يقومها بلفور، تكمن فى «محاولتها التقليل من الويلات الأبدية التى أصابت الحضارة الغربية نتيجة وجودجسم كان يعتبر غريبًا بل معاديًا، ولكنها فى الوقت نفسه غير قادرة على إبعاده أو استيعابه»[٤٣].

وبعد أن فشل مشروع أوغندا، رضى بلفور بفلسطين كحد متغير فى المعادلة الصهيونية. ومع أن مشروع تشامبرلين لتوطين اليهود فى شرق إفريقيا كان نابعًا عن نية طيبة إلا أن عيبه الكبير أنه لم يكن صهيونيًا. أما فلسطين، فقد كانت فى صهيونية بلفور العنصر الذى لا غنى عنه، ولم يكن يخفى تصوره حول مستقبل سكان فلسطين العرب، فقد جاء فى مذكرته بالنسبة «لسوريا وفلسطين وما بين النهرين»:

> **ليس فى نيتنا حتى مراعاة مشاعر سكان فلسطين الحاليين، مع أن اللجنة الأمريكية تحاول استقصاءها، إن القوى الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية. وسواء أكانت الصهيونية على حق أم على باطل، جيدة أم سيئة فإنها متأصلة الجذور فى التقاليد قديمة العهد والحاجات الحالية، وآمال المستقبل، وهى ذات أهمية تفوق بكثير رغبات وميول السبعمائة ألف عربى الذين يسكنون الآن هذه الأرض القديمة**[٤٤].

أما بالنسبة للاستيطان اليهودى فى فلسطين فقد أوصى فى الجزء الأخير من هذه المذكرة:

> **إذا كانت للصهيونية أن تؤثر على المشكلة اليهودية فى العالم فينبغى أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين اليهود؛ ولذا فإن من**

المرغوب فيه أن تكون لها السيادة على القوة المائية التى تخصها بشكل طبيعى سواء أكان ذلك عن طريق توسيع حدودها شمالاً أم عن طريق عقد معاهدة مع سوريا الواقعة تحت الانتداب، والتى لا تعتبر المياه المتدفقة جنوبًا ذات قيمة بالنسبة لها. وللسبب ذاته يجب أن تمتد فلسطين لتشمل الأراضى الواقعة شرقى نهر الأردن[٤٥].

صهيونية لويد چورچ

كان بلفور ولويد چورچ صهيونيين متحمسين ومتفقين فى تأييدهما للصهيونية، رغم أن أولهما من المحافظين، وثانيهما من الأحرار. كانت خلفياتهما متشابهة. فـ (بلفور) الذى وصف والدته ذات مرة بأنها «امرأة ذات إيمان دينى راسخ» نشأ وترعرع فى أحضان التقاليد البروتستانتية الأسكتلندية بكل ما تحمله من حب للعهد القديم، وإيمان شديد بعودة اليهود كبشرى بمجىء المسيح المنتظر. وتعكس فلسفته الشخصية الخاصة، كما لخصها فى «الديانة والإنسانية»، وكان يرى أن التاريخ «أداة لتنفيذ هدف سماوى».

أما لويد چورچ، فقد كفله خاله ريتشارد لويد، وهو واعظ متطوع ينتمى لإحدى فرق المعمدانيين الويلزية وهى: «حواريو المسيح» بسبب وفاة والده وهو صغير. ولذلك فقد كانت له خلفية صارمة من العهد القديم. وقد اعترف لويد چورچ بأنه تمرس بالتاريخ العبرى أكثر من تاريخ إنجلترا:

نشأت فى مدرسة تعلمت فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادى، وبمقدورى أن أذكر أسماء جميع ملوك إسرائيل ولكنى أشك إن كنت أستطيع ذكر أسماء بضعة ملوك من ملوك إنجلترا أو مثل ذلك العدد من ملوك ويلز، لقد أشربنا تاريخ جنسكم فى أعظم أيام مجده عندما أقام أدبه العظيم الذى سيتردد صداه حتى آخر أيام هذا العالم القديم، والذى سيؤثر فى الأخلاق الإنسانية ويشكلها، وسيدعم ويلهم الحافز الإنسانى لا لليهود فحسب، بل للمسيحيين كذلك. لقد استوعبناه وجعلناه جزءًا من أفضل ما فى الأخلاق المسيحية[٤٦].

وفى هذا الحديث نفسه، عزا لويد چورچ الفضل فى صهيونيته لشخصية حاييم وايزمان وموهبته ككيميائى «لقد اهتديت على يديه. لقد حولنى للصهيونية»[٤٧]. وكرر اعترافه نفسه فى كتابه «حقيقة معاهدات السلام». و«ذكريات الحرب»[٤٨] هذه الحقائق هى جزء من الأسطورة القائلة إن وعد بلفور كان مكافأةً لوايزمان على خدماته التى قدمها للمجهود الحربى البريطانى (حيث كان يعمل كيميائيًا فى وزارة العتاد الحربية أيام لويد چورچ). وعلى الرغم من مواهب وايزمان فقد كان لويد چورچ ميالاً بالتأكيد للتسليم بحجج وايزمان بشأن وطن قومى لليهود فى فلسطين.

وفى ١٥ أكتوبر عام ١٩٠٥م، وصفته صحيفة (جويش كرونكل) بأنه «ويلزى وطنى شجاع»، و«مؤمن متحمس للحركة الصهيونية»[٤٩]. وذكر وايزمان شخصيًا أن «تأييده للوطن القومى اليهودى كان سابقًا لتوليه رئاسة الوزارة»[٥٠]. لقد بدأت معرفة وايزمان بلويد چورچ فى يناير عام ١٩١٥م، ولكنه كان على اتصال وثيق بـ (هرتزل) والحركة الصهيونية عام ١٩٠٣م.

كان لويد چورچ، وروبرتس وشركاه ـ شركة لويد چورچ القانونية ـ هم الذين وضعوا مسودة مشروع تشامبرلين الخاص بشرق إفريقيا بناء على توصية من المنظمة الصهيونية، وأخبر لويد چورچ هربرت صمويل فيما بعد، وهو أحد أعضاء وزارة إسكويث وأحد اليهود المتعاطفين مع الصهيونية، أنه كان «تواقًا لرؤية دولة يهودية فى فلسطين»[٥١]، وفى ١٥ يناير عندما نشر صمويل مذكراته «حول مستقبل فلسطين» كان لويد چورچ وزير العتاد فى وزارة إسكويث، وإدوارد جراى، وزير الخارجية، هما الوحيدين اللذين أيدا اقتراح صمويل الداعى للربط بين ضم فلسطين لبريطانيا والتأييد البريطانى للمطامع الصهيونية فى فلسطين»[٥٢].

وعندما تولى لويد چورچ رئاسة الوزارة فى ديسمبر عام ١٩١٦م، بدأت الحكومة البريطانية تدرس جديًا موضوع إصدار بيان عام عن السياسة البريطانية فى فلسطين، واستهلت مفاوضات رسمية مع الصهيونية حول هذا الموضوع. وكانت فلسطين آنذاك قد أصبحت محور مناورات الحرب العالمية الأولى للسياسة المعقدة. ومع وجود

لويد چورچ فى رئاسة الوزارة وآرثر چيمس بلفور وزيراً للخارجية تغلغلت الصهيونية غير اليهودية فى أعماق دوائر القرار البريطانى التى كانت محاطة بحشد من الشخصيات المختصة الأقل شأناً، والتى كانت مخلصة فى صهيونيتنا.

وعندما جرى النقاش حول كيفية تسيير دفة الحرب؛ اختار لويد چورچ ـ انطلاقًا من مشاعره الصهيونية ـ تأييد «الشرقيين» الذين كانوا يدعون إلى جعل الشرق الأدنى هو المسرح الرئيسى للمجهودات الحربية البريطانية بعد توقف القتال فى الجبهة الغربية. وكانت حملة فلسطين بالنسبة له هى الجزء المهم فعلاً من الحرب؛ لأن «أسماء ميادين الحرب نفسها كانت تثير مشاعره... وكان متأثرًا بذكرياته عن الكتابات المقدسة التى ألفها منذ طفولته، والتى كانت تتنبأ بعودة الشعب اليهودى للأرض المقدسة»[٥٣]. وجاء فى مذكراته الخاصة «لقد تأكدنا من المكاسب السياسية والمعنوية المتوقعة من تقدمنا على هذه الجبهة وبخاصة من احتلالنا للقدس»[٥٤].

لكن مخاوفه لم تكن تتركز على التحالف التركى ـ الألمانى فقط، فقد كان أكبر همه أن يحول دون مزيد من النفوذ الفرنسى فى تلك المنطقة فى المستقبل، وقد أخبر اللورد برتى، سفير بريطانيا لدى فرنسا، ذات مرة أن فرنسا «سترغم على قبول حمايتنا، وسنكون هناك فاتحين وسنبقى هناك»[٥٥].

الاستعمار البريطانى صانع عيدان الثقاب

التقت المصالح البريطانية والصهيونية فى النهاية، فقد قام الصهيونيون اليهود مثل (حاييم وايزمان، وناحوم سوكولوف) بدورهما فى جعل مصالح الصهيونية متماثلة مع مصالح بريطانيا والاستعمار الغربى، ففى عام ١٩١٧م، كان احتلال فلسطين ضرورة إستراتيچية لبريطانيا، لكن المطالبة بذلك على أساس الفتح العسكرى وحده لم تكن تتفق مع مبدأ ودرو ولسن الذى ينص على عدم السماح بالاستيلاء على الأرض بالحرب، فضلاً عن أن ذلك كان يثير الرأى العام العالمى ضدها. لذلك كان الضم الصريح غير وارد، وكان السبيل الوحيد المتاح لبريطانيا هو ربط أهدافها الحربية بمبدأ تقرير المصير. وهكذا وجد الصهيونيون البريطانيون غير اليهود أن من المناسب

جدّا وضع فلسطين تحت الوصاية من أجل أصحابها الذين ورد ذكرهم فى العهد القديم «شعب الله القديم» . ولم يسبب ذلك راحة للضمير البريطانى فحسب، ولكنه ترك الباب مفتوحًا كذلك لمصالح بريطانيا المستقبلية فى المنطقة . وقد كتب مارك سايكس ذات مرة للورد روبرت سيسل :

علينا، دون أن نظهر أية رغبة فى ضم فلسطين أو جعلها محمية، أن نرتب سياستنا بحيث نصبح أكثر المرشحين لهذه المهمة حين يحين الوقت لاختيار سلطة تنتدب لإدارتها بإجماع الرأى ورغبة سكانها . (٥٦)

وفى إطار الصهيونية غير اليهودية، هيأ وعد بلفور موقفًا «أخلاقيًا» ومبررًا «معقولاً» ولم يكن الانتداب البريطانى على فلسطين، فيما بعد، أكثر من الاعتراف الحتمى بحقيقة واقعة . وكان وعد بلفور داخلاً فى الانتداب البريطانى على فلسطين الذى عهد به المجلس الأعلى للقوات المتحالفة فى سان ريمو عام ١٩٢٠م، كما منحتها عصبة الأمم ذلك الحق عام ١٩٢٢م من أجل الهدف المحدد وهو «إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين» .

لماذا وعد بلفور؟

تختلف وجهات نظر المؤرخين حول السبب الذى حدا بالحكومة البريطانية أخيراً، برئاسة لويد جورج، لإصدار وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م، وتتفاوت الأسباب بين دوافع حب اليهود والاهتمام بمصلحة الدولة وإستراتيجية الحرب . وتختلف التفسيرات الرسمية كثيراً، كما تختلف تفسيرات المراقب العادى(٥٧) . قد تكون جميع هذه العناصر موجودة ولكنها كانت بحاجة إلى عامل يقلب الميزان لصالح الوعد، ولكن ينبغى البحث عن السبب الأساسى للميول الصهيونية لدى الأفراد الكثيرين الذين كان لهم ضلع فى صنع القرار وصياغته .

لم يكن لويد جورج وآرثر بلفور هما الوحيدين المؤيدين لأهداف الصهيونية فى فلسطين قلبًا وقالبًا . ولكنهما كانا على رأس جيل كامل من الصهيونيين غير اليهود الذين كانت لكل منهم شخصيته المتميزة فى الحياة العامة وفى الحكومة، فمارك

سايكس، وليوپولد أميرى، واللورد ملنر، والميجور أورمسبى جور (اللورد هارلش فيما بعد) وهربرت ساميد بوثام، وروبرت سيسل، وج. س. سمتس، وريتشارد ماينرتز هاجن، وچوسيا، ودجود. وس. ب. سكوت وغيرهم كثيرون كانوا من ذوى النفوذ المناصرين للسياسات الصهيونية.

والواقع أن الوحيدين اللذين كانا معاديين للسامية من ذوى النفوذ هما إدوارد مونتاجو واللورد كيرزون، وقد عبر اللورد كيرزون عن مخاوفه الكبيرة من الصهيونية بحكم كونه أكثر أعضاء مجلس الحرب اطلاعًا على شئون الشرق الأوسط. ففى ٢٦ أكتوبر عام ١٩١٧م، وزّع مذكرة حذر فيها من وعد بلفور المقترح على أساس أنه يتضمن التزامات بعيدة المدى لا تستطيع بريطانيا العظمى أن تفى بها، كما تنبأ بالمتاعب التى ستنشأ فى المستقبل فى فلسطين؛ إذ إن سكانها العرب لن يكونوا «راضين بأن يجردوا من أملاكهم من أجل المهاجرين اليهود، ولا بأن يعملوا قطاع أخشاب وعمالاً لسحب المياه لهم»[٥٨]. لكن تحذيراته لم تجد آذانًا صاغية.

وعلى الرغم من الخلافات بين خصوم كيرزون، إلا أنهم كانوا متفقين معًا فى صهيونية تواقة للمطامع الاستعمارية، وأصبح توافق المصالح الاستعمارية البريطانية والصهيونية أمرًا مقبولاً من الصهيونيين اليهود. وتأكيدًا على ذلك، ففى ٢ أبريل عام ١٩٠٥م كتب صمويل جولدرج، وهو صهيونى مسئول فى أمريكا الجنوبية، فى رسالة إلى هرتزل «حاولت جهدى أن أقنع اللورد ملنر بأن ما يطلق عليه الاستعمار مطابق للصهيونية، وأن أسمى وأنبل مثاليات بريطانيا والعلم تستدعى إعادة إسرائيل إلى صهيون»[٥٩]. وكان اللورد ملنر واحدًا من كثيرين أصبحوا صهيونيين بفضل ميولهم الاستعمارية.

جيل الصهيونيين الاستعماريين الجديد

هربرت ساميد بوثام: عزز ساميد بوثام الفكرة الجديدة عن الصهيونية فى مقالاته المتعددة التى نشرها فى (مانشستر جارديان) وهى صحيفة كان يرأس تحريرها تشارلز بروستوتش سكوت، وهو صهيونى غير يهودى وصديق لكل من لويد چورچ وحاييم وايزمان.

كان ساميد بوثام، كغالبية معاصريه من الصهيونيين غير اليهود، صهيونيًا من ذاته،

وقد التقى (وايزمان) عام ١٩١٦م بعد أن أثارت مقالاته فى (المانشستر جارديان) انتباه وايزمان، وخاصة تلك التى نشرها فى ٢٢ نوفمبر عام ١٩١٥م، وادعى فيها أن فلسطين مهمة جدّا للدفاع عن مصر وقناة السويس. وكانت هذه المقالات المبكرة تؤكد الأهمية الإستراتيجية والسياسية للاستيطان اليهودى فى فلسطين بالنسبة للإمبراطورية البريطانية.

وكانت مقالاته العسكرية الشهيرة التى نالت شهرة واسعة فى الأوساط الحكومية حافلة بالصور الصهيونية. وفى واحدة من مقالاته الأولى، أثار موضوع «الارتباط القديم بين مصر وفلسطين وبلاد ما بين النهرين» مطبقًا ذلك على الوضع المعاصر:

كانت بلاد ما بين النهرين مهد الشعب اليهودى ومكان منفاه فى الأسر. وجاء من مصر موسى مؤسس الدولة اليهودية. وإذا ما انتهت هذه الحرب بالقضاء على الإمبراطورية التركية فى بلاد ما بين النهرين، وأدت الحاجة إلى تأمين جبهة دفاعية فى مصر إلى تأسيس دولة يهودية فى فلسطين، فسيكون القدر قد دار دورة كاملة[٦٠].

وإن وصفه لفلسطين أمر متميز ولا يحتاج إلى تعليق:

كما أنه ليست هناك أية حضارة طبيعية فى فلسطين يمكن أن تحل محل التركية إلا حضارة اليهود الذين يبلغ عددهم ١/٧ عدد السكان، ومع ذلك فإنهم قد أعطوا فلسطين كل ما له قيمة بالنسبة للعالم[٦١].

وتحدث عن فلسطين مستعملاً اسمى يهوذا والسامرة اللذين وردا فى التوراة:

ليس بفلسطين فى الواقع وجود قومى أو جغرافى مستقل إلا ما كان لها من تاريخ اليهود القديم الذى اختفى مع استقلالهم؛ ولذلك فعندما أطلق عليها بلفور اسم وطن قومى لم يكن يعطى شيئًا يخص شخصًا آخر. إنها روح الماضى التى لم يستطع ألفا عام أن يدفناها، والتى يمكن أن يكون لها وجود فعلى من خلال اليهود فقط. لقد كانت فلسطين هى الأرض المقدسة للمسيحيين، أما بالنسبة لغيرهم فإنها تعتبر تابعة لمصر أو سوريا أو الجزيرة العربية، ولكنها تعد وطنًا قائمًا بذاته بالنسبة لليهود فقط[٦٢].

واليهود «أقدم الأجناس الحية» هم الذين ينشرون تأثيرهم الحضارى فى الشرق، أما عرب فلسطين البُدائيون فقد وُصفُوا بأنهم «جنس أكثر ضعفًا وتنوعًا من عرب اليمن أو الحجاز»[٦٣]. ولم يكن موقف سايد بوثام المتعالى تجاه العرب بشكل عام، والفلسطينيين بشكل خاص، يدعو للدهشة، كما أنه لم يكن فريدًا بين الصهيونيين غير اليهود، وقد أنهى تمجيده للصهيونية بقوله:

إن الحجة من أجل الصهيونية قوية جدًا بالنسبة لأمتنا حتى إن الواجب ليدعونا أن نوجدها لو لم تكن موجودة بيننا[٦٤].

السير مارك سايكس

كان سايكس الإنجليزى صاحب النفوذ الذى تحول للصهيونية من خلال الاستعمار أحد مساعدى لويد چورج فى وزارة الحرب، وكانت مهمته هى تزويد مجلس الوزراء بالمعلومات والمشورة حول شئون الشرق الأوسط. ومع أنه لم يكن من صانعى القرار فإنه كان مؤثرًا جدًا عليه بسبب شهرته كخبير فى شئون الشرق الأوسط وبسبب حظوته لدى أصحاب السلطة، ويرى كاتب سيرة حياته أنه كان القوة المحركة للسياسة البريطانية الخاصة بفلسطين، والتى أدت إلى وعد بلفور ثم الانتداب[٦٥].

وصهيونية سايكس، والذى نشأ كاثوليكيًا، تعد عكس القاعدة العامة التى تربط الصهيونية غير اليهودية بالوسط الكتابى البروتستانتى.

والواقع أن سايكس لم يكن يتمسك بالمواقف المألوفة التى تعتبر اليهود «شعب الله القديم» الذى يجب أن يعاد إلى وطنه القديم. وقبل أن يتحول للصهيونية كان أحد المتفاوضين فى اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة، وهى المعاهدة السرية التى وضعت عام ١٩١٦م وقسمت الإمبراطورية العثمانية فيما بين روسيا وبريطانيا وفرنسا، ووضعت فلسطين تحت إدارة دولية. ومع أنه لم يكن على جهل بالصهيونيين والمسألة اليهودية فى ذلك الوقت، إلا أنه كان يرى أن لا علاقة لذلك بالمفاوضات الفرنسية الإنجليزية الخاصة بالوصول إلى تسوية للإمبراطورية العثمانية بعد الحرب. ومع ذلك كانت اتفاقية سايكس بيكو فى أحد جوانبها هى ما يريده الصهيونيون: لقد أعطت المعاهدة فلسطين هوية جغرافية لأول مرة فى التاريخ الحديث:

كانت اتفاقية سايكس بيكو صهيونية فى أصلها من بعض النواحى؛ إذ إن الشرط الخاص بفلسطين كان إلى حد كبير ثمرة مذكرة صمويل، وتحويل الدكتور جاستر لسايكس، وتأثير سايكس على بيكو، كما أنها حمت مستقبل فلسطين (بطريقة لا أخلاقية) من نتائج الوعود البريطانية لشريف مكة بمنح العالم العربى الاستقلال. وكانت الاتفاقية متعارضة مع الرغبات الصهيونية من زاوية واحدة وهى إصرارها على المنطقة الدولية[٦٦].

ودكتور جاستر المشار إليه سابقًا هو الدكتور موسى جاستر معلم سايكس الصهيونية، وهو الحاخام الأكبر للسفارديين فى لندن. وقد التقى مع سايكس فى إحدى الجمعيات الشرقية خلال عام ١٩١٥م، وفتح عينيه، كما يقول سايكس، على معنى الصهيونية فى نهاية ذلك العام عقب تعيين سايكس واحدًا من وكلاء الوزارة فى مجلس الحرب[٦٧].

وكان لـ (هربرت) صمويل يد فى دعم معلوماته عن الصهيونية، إذ أرسل له فى فبراير عام ١٩١٦م نسخة من مذكراته التى تدعو إلى «حماية بريطانية» على فلسطين يتم عن طريقها تقديم «تسهيلات للمنظمات اليهودية لشراء الأراضى وإقامة المستوطنات وإنشاء مؤسسات تعليمية ودينية». وتأثر سايكس بهذه المذكرة وبدأ يهتم منذ تلك اللحظة بالصهيونية بشكل جدى، وتبنى الهدف الرئيسى للصهيونية وهو «تحقيق فكرة مركز للقومية بدلاً من حدود الأرض»[٦٨]. وكان للصهيونية سحر خاص على سايكس كمؤمن متحمس للقومية ومزاياها. ومما زاد من حماسه لها تفسير صمويل بأنها داخل إطار الاستعمار البريطانى الأكبر.

وكان سايكس، قبل لقائه الشخصى بجاستر وصمويل الصهيونيين اليهوديين، معروفًا بمواقفه المعادية لليهودية التى كانت تصل أحيانًا إلى حد معاداة السامية صراحة. وكان اليهود بالنسبة له يمثلون «الممول العالمى البُدائى الذى كانت آثامه من بين أفكاره المحببة»[٦٩]، وكان يصرح باحتقاره «لليهود المتأنجلزين» الذين كانوا يمزجون بين الدين اليهودى والقومية الإنجليزية. والواقع أن سايكس، كما اعترف سوكولوف «لم يكن يضمر حبًا لليهودى المولد»[٧٠]. ولكنه اكتشف بشكل مفاجئ من خلال المنظور الصهيونى «العبرانى الحقيقى» مقابل «اليهودى المتأنجلز».

الصهيونية غير اليهودية ووعد بلفور

يقال إن وعد بلفور لزعماء الصهيونية اليهودية آنذاك حاييم وايزامان، وناحوم سوكولوف، وغيرهما «كالماء الذى يبحث عن منبعه»[٧١] ؛ أى أن الصهيونيين غير اليهود كانوا وراء إصدار الوعد. وقد صرح وايزمان ذات مرة «لقد حصلنا نحن اليهود على وعد بلفور بشكل غير متوقع . . . لم نكن نحلم أبدًا بوعد بلفور، ولقد جاءنا بصراحة بشكل مفاجىء»[٧٢]، لكن هذا الأمر لم يحدث «بين عشية وضحاها» كما أوضحنا فقد كان كل ما فعله وعد بلفور أن جمع المبادئ الأساسية للصهيونية فى وثيقة حكومية رسمية لأول مرة.

لقد ناقشنا الخلفية الدبلوماسية لهذا الوعد الخطير فى مكان آخر بشكل مفصل، وركزنا تحليلنا على الدوافع لبعض صانعى القرار السياسيين. وتحليل نص هذا الوعد المكون من ٦٧ كلمة يبصرنا بالمعتقدات الأساسية للصهيونية. لقداعترف هذا الوعد أولاً، وفى المقام الأول، بوجود «الشعب اليهودى» كأمة، ثم أصبح هذا الشعب «كيانًا قوميًا» يعترف به القانون الدولى بعد أن تم دمج الوعد فى الانتداب ووافقت عليه عصبة الأمم. وكانت آراء غالبية اليهود آنذاك القائلة بأن اليهودية مجرد ديانة «زيفًا واضحًا»[٧٤]، فالصهيونية غير اليهودية كما تبدو فى وعد بلفور أنكرت وجود الشعب الفلسطينى العربى فى الوقت الذى اعترفت فيه باليهود كأمة. وقد أشار الوعد إلى ٩٠٪ من سكان فلسطين فى ذلك الوقت بأنهم «الجاليات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين» وهذه التسمية المنافية للعقل والقانون، والتى تتجنب مجرد ذكر كلمة «عرب» كانت تهدف إلى إخفاء حقيقة أن فلسطين بلد عربى، وكانت كل مبادئ الصهيونية غير اليهودية، كما انبثقت من الثورة البروتستانتية فى القرن السادس عشر، تصور فلسطين على أنها أرض غير عربية ـ أى الوطن اليهودى. أما السكان العرب فهم بين أمرين: إما أنه لم يرد لهم ذكر وإما أنهم اعتبروا بقايا الأجناس الأخرى التى تاهت فى الأرض المقدسة. ويمكن القول: إن الوعد يضمن «الحقوق المدنية والدينية» لغير اليهود. وإن كان تعبير «الحقوق المدنية» يعنى شيئًا فإنه يشير إلى حقوق الغرباء فى أرض غريبة.

أصبحت الأسطورة القائلة إن فلسطين وطن الأجداد لكل اليهود مقبولة على أعلى

مستويات صانعى القرار السياسى، ولم تعد فلسطين تعتبر جزءًا من الوطن العربى، كما عبر عن ذلك اللورد ملنر صراحة:

إذا ذهب العرب بعيدًا فى ادعائهم أن فلسطين واحدة من بلدانهم تمامًا كما هى بلاد ما بين النهرين أو الجزيرة العربية، فإننى أعتقد أنهم يتحدون الحقائق والتاريخ والمبادئ والروابط ذاتَ الطبيعة الأهم؛ وهى الطبيعة المقدسة. ليس من الممكن أبدًا اعتبار فلسطين بلدًا على قدم المساواة مع البلدان العربية الأخرى.. إن مستقبل فلسطين لا يمكن أن تقرره الانفعالات المؤقتة ومشاعر غالبية عرب الوقت الحاضر[٧٥].

وعزف روبرت سيسل على النغمة نفسها حين اعتبر وعد بلفور «إعادة ولادة أمة يهودية، وطالب بأن تكون «الجزيرة العربية للعرب وأرمينيا للأرمن ويهودا لليهود وتركيا الحقيقية للأتراك»[٧٦].

واللغة التى صيغ بها وعد بلفور غامضة، وبخاصة بالنسبة للأرض التى يضمها الوطن اليهودى فى فلسطين. لكن الصهيونيين غير اليهود كانوا للمرة الثانية أول من شغلوا أنفسهم بحدود فلسطين اليهودية، وهى بالطبع «فلسطين التوراتية» التى تشمل أجزاء من لبنان وسوريا والأردن. وكان هشلر ولويد چورچ وسمتس على دراية واسعة بالجغرافيا التوراتية، ولم يكن يساورهم شك فيما ستسفر عنه سياسة الوطن القومى البريطانية.

وقد أثرَ عن بلفور قوله إنهم كانوا يعنون دولة يهودية دائمة[٧٧]. وأكد لويد چورچ هذا التفسير فى الشهادة التى أدلى بها أمام لجنة بيل[٧٨]. ومنذ عام ١٩١٧م، قرر هؤلاء فى أذهانهم وضع فلسطين المستقبلى كدولة يهودية، وإن لم يكن ذلك مسطرًا على الورق.

على ذلك، فإن الصهيونية غير اليهودية وصلت إلى ذروتها خلال العقدين الأولين من هذا القرن، وقد جاء وعد بلفور، والذى واكب المرحلة الحاسمة للتعاون الصهيونى البريطانى، ليحدد علاقات السياسة الغربية بفلسطين.

هـوامش الفصل الرابع

(١) كتب C.R. Conder في صحيفة The Jewish Chronicle عام ١٩٧٨م ما اقتبسه فرانز كوبلر في كتابه The Vision was There (London, 1956 p. 87.

(٢) اقتبسه كوبلر في المصدر السابق ص ١٠٥ ـ ١٠٦ . J.W. Dawson, Modren Science in the Bible

(٣) انظر مثلاً Leonard Stein, Zionism (London, 1925) pp. 47 - 72 Bentwich and Shaftesley, Forerunners of Zionism Victorian Era, pp. 13 - 209.

كان يقطن فلسطين ٣٤ ألف يهودي عام ١٨٧٨م حسب رأي شتاين، وكانت الغالبية العظمى منهم من يهود «الهالوكا»؛ أي الذي يعيشون على التبرعات الخارجية. وكانت قلة منهم تعمل في الزراعة لكسب عيشها وإصلاح الأرض. ولولا تدفق رأس المال الأجنبي ـ بناء على طلب الصهيونيين غير اليهود ـ لانتهت المحاولات القليلة لإقامة مستوطنات زراعية بالفشل الذريع، وقد فشل العديد منها فعلاً.

(٤) Bentwich & Shaftesley، المصدر السابق، ص ٢١٣ .

(٥) كما ورد في المصدر السابق، ص٢١٥ .

(٦) بربارة تخمان «التوراة والسيف»، لندن، ١٩٥٦م، ص ١٧٣ .

(٧) المصدر السابق.

(٨) تتلخص حجج بنسكر العلمانى فى الخلاص اليهودى وإقامة دولة أرضية بما يلى :

١ ـ ليس اليهود شعبًا مفعمًا بالحياة وهم غرباء فى كل مكان ولذلك فهم محتقرون . ٢ـ الخلاص المدنى والسياسى لليهود لا يكفى لتغيير هذا التقييم، والعلاج الوحيد المناسب هو إيجاد قومية يهودية لشعب يعيش على أرضه، والخلاص الذاتى لليهود . ٣ ـ يجب أن يكون هناك حل قومى للقضية اليهودية الدولية . ٤ ـ يجب أن تفتح طريق للانبعاث القومى اليهودى عن طريق هيئة تشريعية من وجهاء اليهود . ٥ ـ سيواجه المشروع فى وضعه الراهن صعوبات جمة . انظر Leo Pinsker, Auto Emancipation, edition by A.S. Eban (London, 1932).

(٩) كان بنيامين دزرائيلى (اللورد بيكو نسفيلد فيما بعد) اليهودى الأصل معروفًا قبل توليه رئاسة الوزارة عام ١٨٧٥م فقد كتب روايتيه الصهيونيتين The Tancred (1847) Wondrous Tale of Alroy (1833) ويعتقد بعض المؤرخين أنه هو واضع مذكرة لا تحمل توقيعًا قدمت لمؤتمر برلين عام ١٨٧٨م وفيها برنامج صهيونى لحل القضية اليهودية . لكن إسهام دزرائيلى الرئيس للصهيونية يكمن فى جهوده لتوسيع وترسيخ المصالح البريطانية فى الشرق الأدنى، فهو الذى فاوض من أجل شراء حصة مصر فى شركة قناة السويس عام ١٨٧٥ ، م كما أن بريطانيا احتلت «قبرص» أولاً ثم «مصر» عام ١٨٨٢م فى عهده .

(١٠) تخمان، المصدر السابق، ص ١٧٤ .

(١١) George Antonius, The Arab Awakening (London, 1938). pp 2 - 261; see also Leonard Stein, The Balfour Declaration (London, 1961), p. 52.

(١٢) يوميات تيودور هرتزل (نيويورك، ١٩٥٦م).

(١٣) Bessi and Haemann, Herzi, Hechler, and the Grand Duke of Baden and the German Emperor, 1896 - 1904 (Tel Aviv, 1961). p. 52.

(١٤) للاطلاع على برنامج بازل انظر Stein Zionism المصدر السابق، ص٨٨ .

(١٥) Julian Amery, The Life of Joseph Chamberlain (london) 1951) Vol.4.

(١٦) تخمان، المصدر السابق، ص١٨٩ .

(١٧) سيتضح فى هذا الفصل أنه عرض غير عملى .

(١٨) Amery، المصدر السابق، ص ٢٦٠ .

(١٩) Christopher Sykes, Two Studies in Virtue (London, 1953). p. 162.

(٢٠) Protokoll des 7. Zionisten Kongress, Wien, Verlag Eres Israel 1905.

(٢١) انظر Jewish Chronicle، ٢٣ ديسمبر ١٩٠٤م وخاص ص ١٣ فهى تتضمن خطابه فى لايمهاوس فى ديسمبر ١٩٠٤م ويهاجم فيه الهجرة الأجنبية إلى إنجلترا بشدة .

(٢٢) يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٧٣ .

(٢٣) Paul Goodman, Zionism in England (London, 1949). pp. 18- 19.

(٢٤) بروتوكولات المؤتمر الصهيونى الرابع (لندن، ١٩٠٠م)، ص٥ .

(٢٥) نشر التقرير النهائى للجنة فى ١٤ أغسطس ١٩٠٣ ، انظر رقم ١٧٤١ . Minutes of Evidence رقم ١٧٤٢ «تقرير اللجنة الملكية حول الهجرة الأجنبية ١٩٠٢ ـ ١٩٠٣م» .

(٢٦) كما فى Oskar K. Rabinowicz, Winston Churchill on Jewish Problems (New York, 1960).

(٢٧) ورد فى ٢٣٦ من كتاب Amery السابق ما يلى :

يروى أن تشامبرلين قال لوزير المالية الإيطالى اليهودى، بارون سونيتو، خلال حفل الغداء : «لقد أطلقوا علىَّ لقب رسول الجنس الأنجلوساكسونى وأنا فخور بهذا اللقب . إننى أعتقد أن الجنس الأنجلوساكسونى رائع كأى جنس آخر على هذه الأرض . . إن الجنس الوحيد الذى أحتقره هو الجنس اليهودى . . إنهم جبناء يا سيدى» .

(٢٨) انظر يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٧٦ .

(٢٩) Amery، المصدر السابق، مجلد٤ .

(٣٠) يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٨٤ .

(٣١) الزعيم الصهيونى Max Nordau هو الذى أطلق على أوغندا اسم «ملجأ ليلى»، أى ملجأ مؤقت لليهود الفارين من المذابح الجماعية فى أوروبا الشرقية .

(٣٢) Stein, Balfour، المصدر السابق، ص ١٤٩ . قدمت حكومة بلفور مشروع القانون مرتين :

فقد قدم أولاً لمجلس العموم فى ٢٩ مارس عام ١٩٠٤م، ولكنه سحب نهائيًا فى ٧ يوليو ١٩٠٤م بسبب معارضة حزب الأحرار الشديدة. أعيد تقديم صيغة معدلة للصورة الأصلية فى ٤ أبريل ١٩٠٥م، فأقرت فى ١١ أغسطس عام ١٩٠٥م وأصبحت نافذة من ١ يناير ١٩٠٦م.

(٣٣) Hansard H. C. 10 July 1905. Vol. 149, col. 154/155. See also Jewich Chronicle. 14 July 1905 p. 7 for a Jewish Critique of Balfour's Speech.

(٣٤) Hansard، المصدر السابق، المجموعة ١٥٥.

(٣٥) Protokoll des 7.Zionisten Kongress. op. cit. p. 85.

(٣٦) للاطلاع على وصف لاجتماع وايزمان مع بلفور فى ١٢ ديسمبر ١٩١٤م انظر Stein. Balfour السابق الذكر ص١٥٤، وكانت كوزيما واجنر هى أرملة ريتشارد واجنر ونموذجًا للاسامية قبل عهد النازية.

(٣٧) Hansard. H. C. 2 May 1905, col. 795. See also Blanche E. C. Dugdale Arthur James Balfour (London, 1936). Vol 2.pp. 17 - 216.

(٣٨) Chaim Weizmann, as quoted in Richard Crossman, A Nation Reborn (London, 1960), p. 27.

(٣٩) تتضمن صفحة ١٦٤ من كتاب Stein. Balfour (1961) مذكرة ولف عن حديثه مع بلفور.

(٤٠) Dugale، المصدر السابق، مجلد٢، ص٢١٦.

(٤١) مقابلة بلفور مع هارولد نيكولسون عام ١٩١٧م، انظر جيروزاليم پوست، ٢ نوفمبر ١٩٥٢م.

(٤٢) Stein. Balfour، المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤٣) Nahum Sokolow. History of Zionism (London. 1919). 1. pp xxixff.

(٤٤) للاطلاع على النص الكامل للمذكرة انظر E.L. Woodward and J. Buter (eds), Documents on British Foreign Policy, 1919 - 39 (London, 1952) 1st Series, Vol. 4,pp.7 - 340.

(٤٥) المصدر السابق، ص ٣٤٧.

(٤٦) لويد چورج للجمعية التاريخية اليهودية فى إنجلترا فى ٢٥ مايو ١٩٢٥م. أعيد طبعه فى كتاب Philip Guedalla, Nopoleon and Palestine (London, 1925), pp. 45 - 55. وبخاصة ص ٤٨ـ٤٩.

(٤٧) المصدر السابق، ص٤٨.

(٤٨) Lloyd George, The Truth About the Peace Treaties (London 1938), Vol. 2, p. 117, see also his War Memoirs (London, 1933 - 36), Vol. 2. p. 584.

(٤٩) Jewish Chronicle, 15 December 1905.

(٥٠) Chaim Weizmann, Trial and Error (New York, 1965). p. 192.

(٥١) Viscount Samuel, Memoirs (London, 1945) p. 139ff.

(٥٢) المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٥٣) Stein, alfour، المصدر السابق، ١٤٦ .

(٥٤) المصدر السابق : Lloyd George, War Memoirs, Vol. 2, p. 122.

(٥٥) The Diary of Lord Bertie of Thame (London, 1924), Vol, 2.p 122 دونت المادة فى ٢٠ أبريل ١٩١٧م.

(٥٦) Shane Leslie, Mark Sykes: His Life & Letters (London, 1923).

(٥٧) عبر بلفور أكثر من مرة عن اهتمامه «بإعطاء اليهود مكانهم الشرعى فى العالم» انظر «المناقشات البرلمانية، مجلس العموم، مجلد ٥٠، رقم ٤٧، المجموعتان ١٠١٨ ـ ١٠١٩، ٢١ يونيو ١٩٢٢م. وانظر كذلك ص ٢١٦ ـ ٢١٧ من المصدر السابق لـ Dugdale. وقد أشار لويد جورج فى سيرة حياته إلى أهمية الدعاية بين اليهود الأمريكيين والروس فى حين كان ونستون تشرشل يعتمد على «التأييد المعنوى والمالى» ليهود العالم. انظر «المناقشات البرلمانية» مجلس العموم، مجلد ١٥٦، المجموعة ٣٢٨٩و ٤ يوليو ١٩٢٢م. أما اللورد «كيرزون ـ Curzon» فقد كان يركز على العامل الإستراتيچى كسبب رئيسى. انظر «المناقشات البرلمانية»، مجلس اللوردات، مجلد ٤٠، المجموعة ١٠٢٨، ٢٩ يونيو ١٩٢٠م.

(٥٨) للاطلاع على النص الكامل للمذكرة انظر

Lioyd Gegrge, Treaties, Vol. 2. pp. 1123ff.

(٥٩) جولدريش إلى هرتزل، ٢ أبريل ١٩٠٥م. هناك نسخة من الرسالة فى الأرشيفات الصهيونية فى القدس.

(٦٠) Herbert Sidebotham, England and Palestine. Essays Towards the Restoration of the Jewish State (London, 1918).

(٦١) المصدر السابق.

(٦٢) Herbert Sidebotham, British Policy and the Palestine Mandate Our Proud Privilege, as quoted in Joseph M, Jeffries, Paletine The Reality (London, 1929),

(٦٣) Herbert Sidebotham, British Interests in Palestine (London, 1934), p. 8.

(٦٤) المصدر السابق، ص١١.

(٦٥) Leslie, op, cit, pp. 9 - 288, also p. 85. See also Leopold S Amery My Political Life (London, 1953), Vol. 2, pp. 15 - 114.

(٦٦) المصدر السابق Sykes، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٦٧) Mark Sykes address to the London Opera House meeting reported in the Times, 3 December 1917.

(٦٨) كما ورد فى Stein, Balfour, 233 - 234

(٦٩) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

(٧٠) Sokolow، المصدر السابق، مجلد٢، صxxi.

انظر كذلك LESLIE، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٧١) Joseph M. N. Jeffries, Palestine: The Reality (London, 1939) Longmans Green & Co, P. 172.

(٧٢) As Quoted in Paul Goodman (ed.). Chaim Weizmann (London 1945), Chapter 14.

(٧٣) لمزيد من الدراسة المفصلة للخلفية السياسية للوعد انظر المصدر السابق Stein, Balfour .

(٧٤) وزارة الخارجية ٣٧١/ ٣٨٨/ ١٤٩٥ ، ٢٧ أكتوبر ١٩١٨م .

(٧٥) اللورد «ملنر ـ Milner» فى مجلس اللوردات فى ٢٧ يونيو عام ١٩٢٣م كما ورد فى ص ٦٩٥ ـ ٦٩٦ من المصدر السابق لـ Jeffries .

(٧٦) طبع الخطاب الذى ألقى فى دار أوبرا لندن فى ٢ ديسمبر ١٩١٨م كاملاً فى المصدر السابق لسوكولوف ، مجلد٢ ، ص١٠١ .

(٧٧) حديث بلفور مع وايزمان وتشرشل ومارك سايكس وماينرتزهاجن فى ٢٢ يوليو ١٩٢١م كما ورد فى Richard Mcinertzhagen, Middle East Diary 1917 - 1956 (London, 1960) pp. 130 - 105.

(٧٨) استنتجت لجنة بيل فى تقريرها الذى نشر فى LIoyd George, Treaties, Vol, 2. p. 1139 يوليو ١٩٣٧م أن «صراعًا لا يمكن السيطرة عليه» قد ثار حول مسألة من سيحكم فلسطين ، وأوصى التقرير بتقسيم فلسطين ، وصدر الكتاب الأبيض وهو كتاب عام ١٩٣٧م لدعم التقرير باعتباره السياسة البريطانية الرسمية .

* * *